مسؤولية بريطانيا في كارثة فلسطين

لقد كان من المتعذر اقتران العدوان ضد الشعب الفلسطيني عسكريا وسياسيا لولا حصول الصهيونية على مساندة مجموعة متفوقة من الدول الغربية ، ويدين توينبي بريطانيا بصورة رئيسية ، ويرى ان دورها الامبريالي في الوطن العربي قد بدأ منذ ١٨٨٢ حين احتلت مصر بقوة السلاح ، مما اثار شعورا بالاستياء والمرارة ضدها لم يفقه الا شعور المرارة لما اقترفته في فلسطين منذ ١٩١٧ ٠

وقد اتيح لتوينبي خلال عمله في وزارة الخارجية ـ قسم الامبراطورية التركية بما فيها فلسطين ـ خلال الحرب الاولى ، فرصة الاطلاع على ما حدث خلال تلك السنوات الحرجة ، ويحمل الحكومة البريطانية مسؤولية بالغة الخطورة لعاملين : اولا لاصدارها تصريح بلفور ، ثم لسلوك الانتداب البريطاني خلال الثلاثين سنة التالية ٠

وفيما يتعلق بالتصريح ، لربما تكون دوافع بريطانية لاصدار التصريح هي اولا التفوق على دول الوسط في التنافس لكسب الدعم اليهودي في وسط اوروبا والولايات المتحدة ، وثانيا ان الوطن القومي اليهودي في فلسطين ـ التي هي جزء من الامبراطورية العثمانية حليفة دول الوسط ـ هو ورقة رابحة بيد بريطانية ، واخيرا مواجهة البغض الذي يحمله اليهود في اذهانهم ضد بريطانيا لكونها حليفة روسيا الدولة الرئيسية في اضطهاد اليهود ٠ هذه دوافع قصيرة الامد ، ولاغراض الحرب ، وكان بامكان بريطانية ـ كما يقول توينبي ـ ان توازن بين قيمة الدعم اليهودي وقيمة الدعم العربي ٠ ففلسطين بلد عربي ، وكان من الافضل ان تقدم بريطانية العدالة للعرب الفلسطينيين ولا تدعم الصهيونية ٠

ويقر توينبي انه حين كان في وزارة الخارجية لم يكن قد تعرف بعد على المعنى الذي تضمنه التصريح ولم يكن يدرك بعد القوة الهائلة للصهيونية ، ولا يرى فيها سوى قضية صغيرة تشبه المستوطنات الزراعية اليهودية السابقة ٠ كذلك لم يكن يعرف ما هي تعهدات بريطانية للعرب ٠ ولكنه ادرك ذلك تدريجيا، الا انه يعتقد ان العبارات في التصريح كانت متعمدة ، بل يؤكد ان كل كلمة قد رسمت بدقة لتكون غامضة ٠ وتاريخ وضع مسودة التصريح يظهر ان الحكومة البريطانية كانت مطلعة على الاهداف الصهيونية النهائية ٠ وكذلك لا يعتقد ان بلفور نفسه كان غافلا عن المعنى الضمني للتصريح ٠ اذ قد ابدى ملاحظة خاصة الى اعضاء الوزارة احتج فيها على وضع فلسطين تحت انتداب من الفئة (أ) الذي يعني حق تقرير المصير بقوله « اننا لا ننوي منح حق تقرير